

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

- ٦ -

من وسائل البحث شأن يعلم من شعراء العصر هؤلاء الثلاثة
نحسب ؛ ولقد نشأ الرافعي الشاعر في أول هذا القرن ، وأوّل
حافل بشّة من الشعراء لم يجتمع مثلهم في زمان في بلد ؛ فما مبلغ
تأثر الرافعي بكل أولئك الشعراء المعاصرين ؟

هنا أدع للرافعي نفسه أن يتحدث ، وما حديثه هذا إلا
طرف من الدعاية التي كان يقوم بها لنفسه في أول عهده بالشعر
ليبلغ المنزل الذي يطمح إليه . وإنه ليكشف عن شيء من خلق
الرافعي وكبريائه واعتداده بنفسه ، ويدل على قوة الرافعي وعنفوانه
وشدته في النقد ، إذ كان هذا الحديث أول ما كتب الرافعي
في النقد .

إن أدباء العربية عامة لا يعرفون من الخصومات الأدبية أشهر
شهرة من الخصومة بين الرافعي وأدباء عصره ؛ فالخصومة بين
الرافعي وطه ، وبين الرافعي والمقاد ، وبين الرافعي وعبد الله عفيفي ،
وبينه وبين غير هؤلاء — هي خصومة مشهورة مذكورة في
موضوعها من تاريخ الأدب العربي في هذا الجيل ، مشهورة
مذكورة في موضوعها من تاريخ النقد في العربية .

وإن قراء العربية عامة لا يعرفون الرافعي الناقد مفرقة بصيرة ،
ويعرفون شدته وعنفوانه في النقد ، شدة حبّته إلى الكثير ،
وأثبت عليه الكثير . على أن من يريد أن يعرف أول شأن
الرافعي في النقد فليقرأ مقال الرافعي عن شعراء مصر في سنة ١٩٠٥

نشر الرافعي مقاله ذاك في عدد يناير سنة ١٩٠٥ من مجلة الثريا
بتوقيع (*) وأحسبه أخفى اسمه وراء هذا الرمز حذر التهمة ،
وليلغ به مبلغه في الدعاية لنفسه ، فقد جعل نفسه في الشعراء رابع
الطبقة الأولى من طبقات ثلاث تنظم كل من يعرف الرافعي من
شعراء عصره . جعل الطبقة الأولى منهم على الترتيب :

الكاظمي ، والبارودي ، وحافظ ، والرافعي ...

وفي الطبقة الثانية على الترتيب :

صبري ، وشوقي^(١) ، ومطران ، وداود عمون ، والبكري ،

(١) لم يثبت الرافعي طويلا على هذا الرأي في ترتيب شعراء عصره ،
وفيها كتب بعد ذلك من المقالات بتوقيعه الصريح ، بيان رأيه في آخره

« لا يؤاخذني القارئ بما أخذت به نفسي من الترتيب في
هذه المقالات ؛ فقد يبدو لكثير من القراء أنني أسير على غير
منهاج واضح حين أجمع بين الحديث عن الرافعي الشاعر ، والرافعي
الأديب ، والرافعي في أهله ، أو حين أثب من موضوع إلى
موضوع لا يمت إلى سابقه ولا يصله به سبب .

« وعذري الذي أقدمه إلى القراء من هذا الخلط هو أنني
أسير في تاريخ الرافعي على الترتيب الزمني لا ألي بالآلى غيره ؛
فأما حادثة اعترضت حديثاً وجرّت في زمانه تناولتها ، حتى
لا يفتنى شيء مما أريد إثباته ، فأسير مع الحادثة من حيث
تبدأ في زمانها وأنتهي بها حيث تنتهي من تاريخه ، ثم أعود
إلى ما كنت فيه على حساب السنين ؛ فهذا من هذا ؛ وللباحث
من بعد أن يجمع عناصر موضوعه على ما يشتهي ويتناولها
من حيث يريده »

شعراء العصر في سنة ١٩٠٥

قدّمت الحديث في الجزء الرابع من هذه المقالات عن شيوخ
رافعي في الشعر الذين أخذ عنهم أو اقتفى آثارهم ، أو جرى
هم على سنن . وأثبت ما كان بينه وبين حافظ من المنافسة ،
ما كان يتمتع به حافظ يومئذ من الشهرة والجاه والحظوة عند
شعب ، تلك الشهرة التي ألهمت غيره الرافعي وحفزته إلى الكفاح
محسّته إلى استكمال أسباب الغلبة بمقد الأواصر وإنشاء
روايات والدعاية لنفسه . ثم بينت ما كان بين الرافعي والكاظمي
من صلة الحب والتقدير ؛ وتساءلت في آخرة القول : هل من صلة
ن الرافعي وبين غير هؤلاء الثلاثة من شعراء الجيل ؟ هل كان
ير البارودي وحافظ والكاظمي من شعراء مصر أثر في شعر
رافعي ؟ وما مبلغ هذا الأثر ؟ وما نتيجته ؟

على أن الباحث المحقق لا يقتنع بهذا التساؤل ، وليس بكفيه

يقولون : إن شعر حافظ اليوم خير منه في ديوانه الأول ؛ وذلك لأنهم لا يدركون موقع الخيال الشريف ، ولا يهتزون للمعنى البكر إلا في اللفظ الثيب ، وهؤلاء يفضلون (شوقي) عليه ، وهيهات بعد أن استنوق الجلل ... ! »

وكتب عن نفسه :

« لو كان هذا الشاعر (يعني نفسه) كما أسمع عنه ، فإني أكون قد ظلمته إذ لم أقدمه عن هذا الموضع (الرابع من الطبقة الأولى) ؛ فقد أخبرت أنه لم يتم الرابطة والعشرين من عمره ، ولذلك فإني لا أكتب عنه إلا ما أعرف من شعره ، سواء كان فتي أو كهلاً ؛ وهو قد طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت ، وذكر في مقدمة شرحه أنه نظم في عامين ، وأنه لم يقل الشعر إلا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء ؛ ولم أثبت أن رأيت منذ أشهر في بعض أعداد مجلة (الجامعة) تقريباً مسهباً جديداً للجزء الثاني من ديوان هذا الشاعر ؛ فأكبرت ذلك ، ولا شك أنه ينظم اليوم في الجزء الثالث قياساً على ما تقدم ... »

« ومما امتاز به هذا الشاعر ولعه الشديد بالزجل ، وبلوغه فيه أسى ما يبلغه النظم ؛ وله مزية أخرى ، وهي غوصه على المعاني في الأغراض التي لم تطرق ، وكثيرون يعدونه بذلك شاعر مصر ، وديوانه معروف ، وشعره مشهور ... الخ »

وقال عن شوقي :

« سيأخذ بعض القراء العجب إذا رأى شوق بك ثاني الطبقة الثانية وهو هو (شوق بك شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية) ؛ ولكننا نعجب أكثر منه إذ رأينا الشوقيات قد انقلبت إلى شوكلات ؛ فأى ذوق سليم يطمئن لهذه المعاني المكررة وتلك الألفاظ النافرة من مثل : « قضى أرميحي القوم » وغيرها ، ولا أدري لهذا الانقلاب سبباً إلا إذا صح ما يقال من أن (صبري وسلمان) كانا يهذبان شعر الرجل من قبل ، وهو قول لا أجز به ولا أرفضه ... »

« ... وإنما اشتهر قديماً يوم كان الكاظمي في العراق »

والبارودي في سيلان ، وصبري من مذهب شعره على ما يقال وحافظ في السودان ، والرافعي لم يقل الشعر بمسد — على ما قيل

وتقولاً رزق الله ، وأمين الحداد ، ومحمود واصف ، وشكيب أرسلان ، ومحمد هلال إبراهيم ، ثم ... حفي ناصف !
وفي الطبقة الثالثة :

الكاشف، والمنفلوطي، ومحرم، وإمام المبد، والرزبي، ونسيم.
ثم ألحق هؤلاء اثنين يعرفهما من شعراء العراق ، هما : السيد إبراهيم ، ومحمد النجفي

وقد افترض الرافعي مقالته بتأني :

« قرأت في بعض أعداد (النزيا) كلمة عن (الأدب قديماً وحديثاً) قلت : كلمة مألوفة . ولم أثبت أن رأيت جملة أخرى لأديب غيور على الشعراء ، كان رأس الشعر بين أولها وآخرها كأنما خدش بين حجرين ؛ قلت : إني أنظم الشعر فأفسر ، وأقرأ عنه فأفسر ، فإني لا أنفها والقوم قد أصبحوا يتنافسون في أسماء الشعراء ، كما يتنافسون في ألقاب الأمراء ؛ وقد استويا في الزور ، فلا أكثر أولئك شاعر ، ولا أكثر هؤلاء أمير »

« ثم رأيت بعد أن عزم الله لي كتابة هذا المقال أن أتركه بنير توقيع ، وإن كنت أعلم أن أكثر من يقرأونه كذلك سيخرجون من خاتمة كما لو كانوا أميين لم يقرأوا فأنجحتهم . فإن الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت في أحرف الأسماء . فإن قيل : كتاب لفلان ... قلنا : أين يباع ، وإن كان من سقط الناع . على أن اسمي قد لا يكون في غير بطاقتي وكتبي إلى أصحابي القليلين ، وفي سجل بعض الجرائد والمجلات ، فليظنني القاري ما ضرب على رأسه الظن »

« وسأذكر في هذه الأسطر كل من عرفته أو اتصل بي اسمه من الشعراء ، وأقطع عليه رأياً ، فأما اسمه فأكمل به ، وإما أظهره كما هو في نفسه ، لا كما هو عند نفسه ؛ ولذلك فقد ضمتهم إلى ثلاث طبقات ، وجاريت في تسمية بعضهم بالشعراء عادتنا المألوفة »
ثم كتب رأيه بعد ذلك في كل شاعر من ذكرت مقتبساً من شعره مستشهداً به على ترتيبه في موضعه من طبقته

وكان مما قاله عن صديقه ومزاحمه حافظ :

« ... وأنا أكثر شعره في هذه الأيام (سنة ١٩٠٥) أضمت من قبل ... والذين لم تستقم ألسنتهم ولم تزال أفكارهم على سقيم »

« ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه
يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم^(١) »

أحسب أن لهذا المقال أهمية كبيرة لمن يريد أن يدرس الرافعي دراسة أوسع قائمة على قواعد من العلم والتحليل النفسى ؛ وإعنا يستأهل هذا الاهتمام من ثلاث نواح :

أولاً : إنه أول ما أنشأ الرافعي في النقد ؛ فهو كالقدمة لهذه المارك الطاحنة التي قامت بين الرافعي ولفيف من أدباء عصره بعد ذلك بمشرين سنة ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعي في النقد أن يبدأ من هنا

ثانياً : إنه تبت جامع لأسماء الشعراء الذين نشأوا مع الرافعي في جيل واحد ، وقرأ لهم ونظر في شعرهم نظر الناقد أو نظير المعجب المحتذى ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعي في الشعر ، وعن الشعراء الذين تأثر بهم أو تأثروا به ، أن يعرف هؤلاء الشعراء . ثالثاً : إن في هذا المقال لونا من ألوان الدعاية التي كان يقوم بها الرافعي لنفسه ليلبع إلى الهدف الذي كان يري إليه بين أدباء العصر ، فلا بد لمن يريد أن يدرس وسائل الرافعي إلى الشهرة وذبوع الصيت أن يقرأ هذا المقال .

وبعد فإن فيه شيئا من أخلاق الرافعي المزهو بنفسه ، المعتد بعلمه ، القوى بإيمانه ، المتفحيم على مواطن الهلاك ؛ الرافعي القزم الضعيف الذي وقف على السفح تعتمد خاصرته على راحته وهو ينظر إلى فوق ليقول للشعراء العالقة على القمة : إنزلوا إلى أو أصعد إليكم فأرسيكم إلى بطن الوادى أشلاء ممزقة ليس فيها عضو إلى عضو ولا يسمع لكم صرخ . . . !

الرافعي ... ؟ لقد كان الرافعي طويل اللسان من أول يوم ... ؟!

محمد سعيد العمارة

« سيدى بشر »

(١) كان لهذا المقال رنة وصدى بين جماعة الشعراء في ذلك العصر . وقد تحدث عنه المرحوم الرافعي مرة إلى قراء الرسالة ، في العدد ١٠٩ في مقال بعنوان (كلمات عن حافظ) وصف فيها أثره وما أحدث من ضجة بين الشعراء ؛ فليرجع إليه من شاء .

على أن الرافعي لم يصرح في ذلك العدد أنه كاتب المقال ، ولكنه لم يستطع كذلك أن ينفي عن نفسه ، وإن كان معروفا لدى خاصته وأصدقائه أنه كاتبه ؛ وأسلوب الرافعي لا يخفى على أحد من قرائه .

وقد ذكر الرافعي أن هذا المقال نشرته الثريا في سنة ١٩٠٣ وهو سهو حقيقته ما ذكرت .

لى ١ - وأثبت له الشهرة إضافة إلى الحضرة الخديوية على نحو ما يذكر النخلة في باب (الجر) بالمخامرة ... »

وختم المقال بقوله :

« ... وسرى ما يكون من استفاض الشعراء بعد هذا المقال ، ولكنى أطلب إليهم أن يخفصوا عن أنفسهم ؛ فلا أنا من معية الأمير ، ولا من حاشية السفير ، وليس ما كتبت إلا رأيي ، فليكن كل في رأيه وعند نفسه أشعر الشعراء »
وذيلته مجلة (الثريا) بما يأتى :

« أتى إلينا مكتب بريد الزيتون يوماً ملفاً ضخماً وارداً من مصر ، وداخله كتاب موجز ومعه المقالة المتقدمة للنشر . أما لكتاب فهذه صورته بعد الديباجة :

« ... دونك مقالة بكرة لم يُنسخ على منوالها بعد في لمرية ، حريّة بأن تصدر بها مجلتك الفراء ؛ ولا يروعتك ندة لهجتها فكلمها حقائق ثابتة ، وإن آلت البعض فإن الحق كبر من الجميع ؛ وإنى لبالمرصاد لكل من ينبرى للرد عليها ، أنا كفء للجميع ؛ وما إخال أحداً يستطيع أن ينقض حرفاً ما كتبت ، وإن هم لموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك نزاراً بأنى أزلت كل شاعر في المنزلة التي يستحقها .

« ولا بعتك معرفة اسمي ، فأنا ابن جلا وطلاع الثنايا ؛ نظر إلى ما قيل وليس لمن قال ، وبعد هذا فإن أعجبتك مقالتي نشرها وإلا فاضرب بها عرض الحائط .

« وإنى أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود في مني ، سواء جاهر أصحابها بأسمائهم أو تسروا ، فإن الموضوع لي شعى ، وفي إطلاقك الحرية للكتاب ما ينشط بهم الحرية لبولان في هذا الضمار »

قالت الثريا : « وقد تصفحنا المقالة فراعنا شدة لهجة الكاتب لتنا تقدم رجلاً وثوخر أخرى في نشرها ، إلى أن قلب علينا بل لنشرها ، إن لم يكن لشيء فلكثرة ما حوته من وائق الأشعار جزل الشعراء ، وهم نخبة شعراء مصر في هذا العصر ؛ فاقدمنا ، نشرها كما وردتنا بالحرف الواحد ، غير متحملين تبعها ؛ لكتاب الأدباء الحرية في الرد عليها ، وأبواب الثريا ترحب بكل بردها من هذا القبيل ، سواء من المشتركين أو غيرهم